# أوضاع تطوان خلال القرن الثامن عشر
# من خلال مصادر أجنبية معاصرة

ذ. محمد بوكبوط
كلية الآداب بتطوان

يعتبر القرن الثامن عشر من أهم الفترات التاريخية وأغناها بالنسبة للمغرب، نظرا لما عرفه من أحداث جسام ساهمت بنصيب وافر في رسم سيرورة تطور أوضاع البلاد في القرنين اللاحقين. ولعل أول ملاحظة يقف عليها دارس تاريخ المغرب في هذا القرن هي تميز فترتين طغت أحداثهما وانعكاساتهما على ما عداهما، وتتمثلان في فترة أزمة الثلاثين سنة (1727ـ 1757) التي تلت وفاة السلطان المولى إسماعيل، وفترة الانفتاح المتزامنة مع عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757 ـ 1790).

وبديهي أن مدينة تطوان ـ باعتبارها من أهم مدن البلاد وموانئها في هذا العهد ـ تأثرت بالأوضاع العامة للبلاد خلال هذا القرن، إلى جانب تأثيرات عوامل خارجية كانت المدينة، بحكم موقعها وأنشطتها، محتكة معها مباشرة، ونعني بها قربها من البوغاز والبحر المتوسط، وما نتج عن ذلك من علاقات دبلوماسية ومبادلات تجارية. كل ذلك جعل تطوان محط اهتمام الكثير من الكتاب الأوروبيين، من سفراء وقناصيل وتجار وجواسيس ومغامرين وغيرهم، حيث لم يخل مؤلف من مؤلفات ذلك العهد من إشارة إلى المدينة. ويروم هذا العرض محاولة إبراز جوانب من الأوضاع العامة للمدينة من خلال بعض هذه الكتابات الأجنبية، التي لا يجادل أحد في أهميتها لدارس تاريخ البلاد، لما أوردته من معطيات تبخل بها المصادر المغربية، مقدمة بذلك مادة تاريخية نقف من خلالها على صورتها وصورة مجتمعنا عند الآخر، هذه الصورة التي لا تخلو من بعض الحقيقة التي ترفضها الذات.

**أحوال تطوان خلال فترة الأزمة (1727– 1757).**

من المعلوم أن سنة 1727 تعد محطة بارزة في تاريخ

المغرب الحديث، ففيها توفي السلطان المولى إسماعيل لتندلع بعده حرب أهلية طاحنة دامت ثلاثين سنة، إذ اندفعت القوى الاجتماعية والسياسية المختلفة إلى تصفية حساباتها وتناقضاتها المتراكمة لما ينيف عن نصف قرن من حكم المولى إسماعيل.

وكانت تطوان من أولى المدن التي تمهدت أحداثا دامية مع بداية الأزمة، إذ بادر أهلها إلى الثورة على الباشا أحمد الريفي بمجرد بلوغ نبأ وفاة المولى إسماعيل.

ومن أهم الكتابات التي أرخت لأحداث هذه الثورة كتاب جون برايتوايت John Braithwaite الذي صحب القنصل جون راسل J.Russel المعين خلفا لهاتفيلد المستقيل سنة 1727[1]. فمع وصول البعثة الدبلوماسية إلى تطوان، بلغ خبر وفاة السلطان في بداية مارس من سنة 1727، فاضطرت الأحداث أعضاء البعثة على الإقامة مدة شهرين بالمدينة، مما مكن المؤلف من الوقوف على كثير من تفاصيل أوضاعها قبل السفر إلى مكناس العاصمة للتفاوض حول الأسرى. وقد دون برايتوايت شهاداته وانطباعاته في مؤلف عنوانه «تاريخ ثورات إمبراطورية المغرب منذ وفاة الإمبراطور الأخير مولاي إسماعيل...»[2]. وينفرد هذا المصدر بإيراد تفاصيل دقيقة مبنية على مشاهدة عيانية لأحداث تطوان وأوضاعها في بداية أزمة الثلاثين سنة[3].

وقبل التعرض لأهم هذه الأحداث مع برايتوايت، يجدر بنا أن ندعه يصف مدينة تطوان الممتدة على مسافة « ميل طولا ونصف ميل عرضا، ويمنحها موقعها المطل على المنطقة المجاورة رسما جميلا. وتشكل اهتمام وحرص المورسكيين والإسبان على

---

1 - ب.ج. روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900، ترجمة يونان لبيب رزق، الدار البيضاء، 1981، ص. 128.

2 - اعتمدنا النص المترجم إلى الفرنسية: John Braithwaite, **Histoire des révolutions de l'empire de Maroc depuis la mort du dernier Empereur Muley Ismael...**, Amsterdam, 1731.

3 - تتضح أهمية المصدروانفراده في اعتماد محمد داود عليه لتغطية الأحداث المشار إليها.

التقيد بالعادات القديمة تناسقا دقيقا بين المنازل والرياض والازياء».[4] ويضيف «سأعطي وصفا موجزا لهذه المدينة التي وجدتها أرقى بكثير من كل المدن التي رأيناها في رحلتنا، ومما يدعم هذه الميزة إمكانيات البلد المحيط بها والذي يعتبر أحسن منطقة فلاحية على الصعيد المغربي. نضيف إلى ذلك تجارة شعب أكثر روحانية وحضارة في هذه الإمبراطورية».[5]
ويعترف الدبلوماسي الإنجليزي أن حكمه السابق قد أعقب صورة سيئة كونها ورفاقه عن أهل تطوان أثناء مقامه بين ظهرانينهم، ولم يتراجعوا عن أحكامهم المسبقة إلا بعد معاينتهم لسكان بوادي ومداشر داخل البلاد على طول طريقهم نحو مكناس حيث يقول «كلما ابتعدنا عن البحر كلما وجدنا الشعب فظا ومتوحشا»[6].

ولاغرابة في إطراء بريتوايت على سكان تطوان - خاصة بعد مقارنتهم مع أبناء القبائل - حيث أن أولئك هم سليلو مجتمع حضري أندلسي متقدم، كما أن تطوان كانت خلال القرن الثامن عشر العاصمة الدبلوماسية للمغرب، وميناء تجاريا نشيطا، مما جعل عددا هاما من الأوربيين يستقرون فيها، فأصبح منظر الأوروبي المختلط مع المسلمين عاديا ولا يثير أي ردود فعل تتحكم إلى حد بعيد في رسم صورة الآخر وإطلاق أحكام القيمة.

أما عن أوضاع المدينة في سنة 1727، فقد تميزت بتدهور الأمن بعد الثورة على الباشا وطرده مع أتباعه من أهل الريف من المدينة، فظلت الحرب سجالا بين أهل تطوان والباشا أحمد. ويشير بريتوايت إلى أن أهل تطوان حذوا حذو أهل فاس في الثورة على عاملهم.[7] كما يورد أن أول من ثار على الباشا جبالة أرباض تطوان «وذلك بزعامة بوليز[8] Bollize القوي في

---

4 - J. Braithwaite, op. cit. pp. 156

5 - Ibid, pp. 155

6 - Braithwaite, op. cit. pp. 155

7 - Ibid, p:12

8 - يقصد أبا الليف، متزعم قبائل الفحص وأسريف في الثورة على الباشا أحمد بن علي الريفي وعلى أهل الريف في المناطق المجاورة لتطوان. يصفة الضعيف بسمسار الفتنة، انظر الضعيف، تاريخ الضعيف، تحقيق

الجبال بفضل نفوذه الكبير وسمعته، وهو سليل أسرة عريقة قدمت من الأندلس..

ولم يغفر الباشا إرغامه على تأدية جبايات ثقيلة بقساوة»[9]. مع اندلاع العنف في الجبال المحيطة بتطوان، انتشرت اللصوصية وأعمال التخريب والنهب والإغارة على «طرق المواصلات»، خاصة طريق تطوان - فاس، كما وجدت القبائل والأحلاف المختلفة الفرصة مواتية لتصفية حساباتها. وهنا يورد بريتوايت تفاصيل عن نهب وسلب وقتل أهل الريف الذين كانوا شيعة للباشا أحمد، والمستقرين في تطوان وهوامشها[10]. وبعد رفض أهل تطوان مساندة الباشا في حملته الانتقامية ضد جبالة بعذر خشيتهم من سهولة إغارة الجبليين على المدينة عند خروجهم منها[11]، بدأ أحمد الريفي في تجنيد قواته لتأديب الثوار، ويشير المؤلف إلى أن الباشا عجز عن استخبار التحالف الذي عقد سرا بين أبي الليف وأعيان المدينة[12].

يتضح ذلك التحالف في استئساد أهل تطوان على أخ الباشا وخليفته على المدينة بعد خروج الأول على رأس قواته قاصدا جبالة الثوار، ويرسم بريتوايت الوضعية بقوله «بمجرد خروج الباشا، وجد أخوه صعوبة في جعل أوامره مطاعة، بل أكثر من ذلك، أرغمه الشعب على أن يعلن في المدينة أن على جميع الريفيين أن يخرجوا منها في أجل معين تحت طائلة الإعدام في حالة العصيان»[13]

بعد ذلك تطورت الأمور إلى انتفاضة السكان ولجوء أخ الباشا ورجاله إلى ضريح أحد الأولياء بعد إضرام النيران في مخازن البارود خشية استئثار الثوار بها،[14] ثم استغل الذعر

---

العماري، الرباط، 1986. ص: 105 ـ 106.

9 ـ Braithwaite, op. cit. pp.12

10 ـ Braithwaite, op. cit. pp. 12-13

11 ـ Ibid, pp. 13

12 ـ Ibid, pp. 12

13 ـ Ibid, pp.15

14 ـ Ibid.

الذي أحدثه انفجار الذخيرة للفرار من تطوان واللحاق بالباشا في طنجة[15]. وهنا سأدع بريتوايت يتحدث عن فصل من أهم فصول ثورة تطوان، والذي يحتاج إلى تحليل عميق. يقول الدبلوماسي الإنجليزي: «مباشرة بعد فراره. قام التطوانيون بهدم القصر الباشوي الجميل ورياضه الساحرة... ورغم هذه التحركات، لم يتخذ الشعب موقفا معاديا لمولاي أحمد الذهبي، بل على العكس تمت مبايعته...وفكر الشعب في تبرير إجرائه لدى القصر. لقد أبلغوه أن الباشا وحده هو موضوع غضب مشروع ضد تجاوزاته ومظالمه... لقد وضعوا لائحة من التهم ضد هذا العامل، وبعثوا بمندوبين محملين بالهدايا للإمبراطور ولوزرائه الرئيسيين، مع أوامر بطلب تخفيف ما والتأكيد على انعدام أي مشكل في استقبال باشا آخر»[16]

ويواصل بريتوايت سرده لهذه الأحداث التي طبعت أوضاع تطوان ونواحيها بذلك الطابع العنيف المميز لأزمة الثلاثين سنة، مشيرا إلى أن السلطان حاول جاهدا أن يصلح ذات البين بين مندوبي تطوان والباشا أحمد، ورغم التوصل إلى بنود للمصالحة، فإن الباشا رفض المصادقة عليها، فرجع الطرفان إلى الشمال، «حيث اتخذ مبعوثو تطوان طريق فاس، ورجع الباشا إلى طنجة»[17].

في ظل تلك الظروف المضطربة، كانت السلطة بمدينة تطوان بيد «الديوان» أو مجلس مكون من أعيان المدينة، ويشير بريتوايت إلى أن المدينة انتخبت رجلا نشيطا عاملا على المدينة، وهو پايص الحداد، لمواجهة الباشا في تلك الظروف.

وعلى كل، فإن بريتوايت أفاض في تناول أحداث ثورة تطوان ضد عامل المولى إسماعيل الباشا أحمد الريفي، بشكل يظل معه كتابه مصدرا مهما في تسليط الأضواء على تلك الأحداث[18]، التي بلغت أوجها عندما هدد ديوان تطوان

---

15 - Ibid.

16 - Braithwaite, op. cit. pp.

17 - Ibid. pp. 19

18 - تزخر شهادات بريتوايت بتفاصيل عن أبطال وأطراف هذه الأحداث، ورسائل مخزنية، وخاصة السلطانية، وارتباطات الصراع مع الأطراف

بالانسحاب إلى سبتة والارتماء في أحضان الأعداء في حالة إصرار السلطان على إبقاء الباشا أحمد عاملا على تطوان.

ونستخلص من هذه الوقائع تذمر الفئات الثرية الحضرية من سياسية مخزن المولى إسماعيل، ممثلة في عامله أحمد الريفي، الذي كان نموذجا للحاكم القاسي الذي طبق سياسة المولى إسماعيل بصرامة، مما جعل القوى الاجتماعية تتيح الفرصة لمحاولة تغيير طبيعة العلاقة بين المخزن ومكونات المجتمع، تلك العلاقة التي تراكمت تناقضاتها لمدة تزيد عن نصف قرن، مما جعلها تنفجر بذلك الشكل الدامي الذي شهدته تطوان وفاس مع إعلان نبأ وفاة المولى إسماعيل.

## الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لتطوان

مما لا شك فيه أن النشاط الاقتصادي لمدينة تطوان قد تضرر من جراء الاضطرابات والحروب في بداية الأزمة، ومن الميادين الأولى التي مست التجارة بين تطوان وفاس، إذ مباشرة بعد اندلاع الأحداث وانتشار الإغارة على الطرقات، توقفت القوافل الأسبوعية التي كانت تربط المدينتين.

لكن مع ذلك، ظلت تطوان تربط علاقات تجارية مع جبل طارق، التي استفادت من النزاعات والحروب الداخلية في المنطقة، وسيعترف بريتوايت بذلك بقوله «وفرت هذه الانقسامات الداخلية بين المغاربة امتيازات مهمة لحصننا بجبل طارق الذي كان حينئذ محاصرا. فقد كان الطرفان حريصين على كسب صداقتنا... صحيح أننا وجدنا موارد كثيرة في تطوان... لقد كنا نحصل منها على كل لوازمنا الضرورية، والتي لولاها لن نحصل عليها إلا من وهران في مملكة الجزائر أو البرتغال. وأترك تصور مدى الصعوبة والمصاريف بالنسبة للأمة لو اضطررنا إلى الحصول على هذه المؤن من تلك الأماكن البعيدة»[19]

غير أن أهمية كتاب بريتوايت لا تكمن - في نظرنا - في المعلومات التي أوردها عن العلاقات التجارية بين تطوان وجبل

---

الأجنبية، وخاصة سلطات جبل طارق.

Braithwaite, op. cit. pp. 22 - 19

طارق، بل في بعض الشهادات والملاحظات التي لا نجد لها أثرا في الكتابات المحلية، والتي تتعلق بجوانب تفسر إلى حد بعيد سيرورة تطور مجتمعنا وهياكله وخاصة الاقتصادية.

من ذلك مثلا أنه في معرض وصفه لوادي مرتين Merteen[20] أو وادي بوسيكا Bousega، يقول بأنه كانت «توجد به بعض المراكب الكبيرة، وبتكاليف قليلة من السهل جعله صالحا للملاحة إلى حدود المدينة (تطوان) أو أبعد من ذلك... ولكنني لاحظت أنه في كل بلاد المغرب، لا يفكر أحد في جعل مثل هذه المنشآت مفيدة للعموم»[21]

هذه الملاحظة تكشف كما سبق عن غياب بنية تحتية تسهل المبادلات، وسيدون المؤلف ملاحظات مماثلة عن غياب طرق ممهدة بين المدن، إذ طوال رحلته من تطوان إلى مكناس، كان الركب يخترق التضاريس المتنوعة وما تشكله من صعوبات للتنقل، مما يفسر، في كثير من الجوانب بطء المبادلات وتعطل نمو وتطور قوى الإنتاج.

إلى جانب التجارة الخارجية، يقر بريتوايت بأن ازدهار تطوان الاقتصادي يعزى كذلك لغنى ظهيرها الفلاحي، إذ كانت حقول ضاحية المدينة تنتج أنواعا مختلفة من الفواكه وغيرها من المنتوجات، وخاصة البرتقال الذي اعتبره إنجليزي آخر «أحلى أنواع البرتغال في العالم»[22].

ويفسر هذا النشاط الاقتصادي لمدينة تطوان غنى وثراء فئات من سكانها في ذلك العهد، والتي يقول عنها القنصل الفرنسي شينيي، ويوافقه بريتوايت عن ذلك « إن Maures تطوان أكثر تحضرا ويسرا من نظرائهم في المدن الساحلية الأخرى»[23]، وإن كان بريتوايت يضيف «بأن الاتجار مع الأمم

---

20 ـ هو الوادي المعروف حاليا بوادي مرتيل. ولم نعثر على المقابل لوادي لوسيكا كما يسميه كل من بريتوايت والقنصل الفرنسي ثينييه، وذلك على الرغم من إطلاق وادي بوصفيحة على جزء من النهر، والراجح أن التسمية الواردة عند هذين الكاتبين لم تعد تطلق على النهر.

21 ـ Braithwaite, op. cit. pp. 70

22 ـ J.G. Jackson, **An account of the Empire of**

23 ـ P. Guillou, **Correspondance de consul Louis chémes**, T.1.

الأوروبية كان سببا في تحضرهم» تاركا خلفياته هنا تصدر أحكاما غير رصينة.[24]

ومن مظاهر ثراء الفئات الغنية بتطوان القصور الفخمة التي كان يقطنها أبناء هذه الفئات الاجتماعية، من تجار وأعيان وممثلي المخزن. ولعل النموذج الأمثل لهذه القصور هو قصر الباشا أحمد الذي أسهب بريتوايت في وصفه. كما تجلى ذلك الثراء في المآدب التي كانت تقام على شرف الضيوف الأجانب، وقد اندهش بريتوايت ومرافقوه الإنجليز أمام كميات الطعام والشراب والأجواق الموسيقية ولعب الخيل خلال مأدبة عشاء أقامها أمين الجمارك لوقش على شرف الوفد الإنجليزي.

إلى جانب الأثرياء المسلمين الذين استفادوا من تجارة تطوان الخارجية استقرت جالية يهودية قدرها بريتوايت بخمسة آلاف شخص بالمدينة، ويورد بأن يهود تطوان كانوا أكثر ثراء ويسرا من يهود المدن المغربية الأخرى لأن «كل التجارة هنا تمر عبر أيديهم، فهم وسطاء بين المغاربة والنصارى»[25]

ومما يعكس أهمية التجارة الخارجية بالنسبة لليهود أنه كلما حدث أي خلاف بين المخزن وسلطات جبل طارق، يسارعون إلى تسويته دون تطور الأمور نحو القطيعة ومن ثم تضرر مصالحهم التجارية.

ومن الملاحظات الاجتماعية الطريفة والدالة التي أوردها بريتوايت عن أوضاع تطوان قوله: «عند رؤية عدد الكسالى الجالسين في الأزقة من الصباح إلى المساء، يصعب على الأجنبي أن يفهم كيف يستطيعون الحصول على ما يقتاتون به دون عمل، وأنا شخصيا لم أستطع قط الكشف عن مواردهم».[26]

وإذا كانت تطوان قد تأثرت كما رأينا من ظروف الأزمة، فإنها ستشهد تطورا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وذلك خلال عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757 - 1790)، حيث تشير المصادر الأجنبية التي اعتمدناها - خاصة مراسلات القنصل شينيي - إلى إرادة هذا السلطان في إحياء

---

24 - Braithwaite, op. cit. pp.91

25 - Braithwaite, op. cit. pp.81

26 - Ibid, p.158

دار الصنعة (الترسانة) بتطوان، والتي ظلت خلال هذا العهد تنتج بعض المراكب، غير أن القنصل الفرنسي قلل من مدى فعالية وخطورة النشاط البحري لميناء مرتيل خاصة بعد سنة 1767، أي عقب توقيع معاهدات سلام وتجارة مع فرنسا وإسبانيا وغيرهما من القوى الأوربية البحرية فيما بعد.[27]

ورغم اهتمام سيدي محمد بتطوان في بداية عهده، فإن ذلك الاهتمام سيتضاءل عندما تبلورت سياسته الانفتاحية، حيث انتقل مركز الثقل الاقتصادي بالمغرب إلى مدينة الصويرة التي بناها السلطان وأولاها عناية خاصة، وجعلها الميناء التجاري الرئيسي، كما خسرت تطوان عاملا آخر من عوامل دورها، وذلك حين أمر سيدي محمد كل البعثات القنصلية المستقرة بها بالانتقال إلى طنجة.

ويتضح تأثر تطوان بهذه الظرفية الجديدة فيما أشار إليه الرحالة الإنجليزي جاكسون. الذي زار المغرب في أواخر القرن 18. من أن عدد سكان تطوان بلغ ستة عشر ألف نسمة[28]، بينما كان العدد حسب بريتوايت في سنة 1727 ثلاثين ألفا حسب تقديره.

ولاعجب أن تعرف مدينة تطوان مثل هذه التقلبات في أحوالها تبعا للظرفية التاريخية، ووفق عوامل داخلية وخارجية تتحكم إلى حد بعيد في رسم المسار التاريخي للمجتمعات والأمم، فأحرى بالمدن والجهات داخل البلد الواحد.

---

P. Guillon, op. cit. p. 21 - 27

J.G. Jackson, op. cit. p:25 - 28